خطبة صلاة الجمعة 25/11/2022 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(مفهوم ذكر الله تعالى)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) كَلَّا﴾ [الفجر: 15-17] قال المفسرون: (ردَّ الله على من ظن أن سعة الرزق إكرام وأن الفقر إهانة، فأخبر أن الإكرام بطاعته والإهانة بمعصيته). فصححت الآية مفهوماً خطأ.

أخرج الإمام مسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: **«مَا تَعُدُّونَ الصُّرَعَةَ فِيكُمْ؟ قَالَ: قُلْنَا: الَّذِي لَا يَصْرَعُهُ الرِّجَالُ قَالَ: لَيْسَ بِذَلِكَ، وَلَكِنَّهُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ»**.

وفي رواية قال: **«فما تعدُّون المفلس فيكم؟»** قلنا: من لا مال له، قال: **«ليس بذلك، ولكنه الذي يأتي يوم القيامة بحسنات، ويأتي قد ظَلَم هذا، وشتم هذا، وأخذ مال هذا، وليس هناك دينارٌ ولا درهمٌ، فيعطَوْن من حسناته ولا يَفي، فيؤخذ من سيئاتهم فيطرح عليه»**.

ففي الحديث توضيح وتصحيح نبوي لمفهومي الصرعة والمفلس.

وفي القرآن والسنة من أمثال هذا في تصحيح المفاهيم كثير.

أيها الإخوة:

التصورات توجه التصرفات، والمفاهيم تؤثر في الحركات والسكنات.

فتصورات الإنسان ومفاهيمه تنعكس في حياته سلوكاً وسكوناً، وأعمالا وأقوالاً، وعطاءً ومنعاً.

فمن تصور المعنى الحقيقي للذهب حافظ عليه وضن به، بينما من تصور أن الذهب معدنٌ خسيس فرط فيه وضيعه؛ فالتصورات توجه التصرفات، والمفاهيم تؤثر في الحركات والسكنات.

هذه الخطبة السابعة من سلسلة خطب عنوانها: (مفاهيم تحتاج إلى تصحيح) جاءت لتصحيح مفاهيمنا لبعض المصطلحات الشرعية والحياتية، والمأمول ممن صح تصوره أن يصح تصرفه. والله الموفق.

عنوان خطبة اليوم:

مفهوم ذكر الله تعالى

يحافظ أحمد على مجلس ذكر في كل أسبوع يُكْثِر فيه الاستغفار والتهليل والتكبير والدعاء، فإذا انتهى المجلس انشغل عن الذكر إلى الوقت نفسه من الأسبوع القادم.

ترى هل هذا هو الذكر الذي طلبه القرآن والسنة من المسلم؟!

لمروة أوراد طويلة كل يوم: ثلاثة ألاف تسبيحة وثلاثة آلاف تحميدة وثلاثة ألاف تكبيرة وثلاثة آلاف تهليلة وثلاثة آلاف حوقلة وسورة البقرة والأنعام والسبع المنجيات، صدتها أذكارها عن رعاية زوجها وولدها، وكلما سألها ولدها أو زوجها أمراً اعتذرت إليهما أنها لم تَنْهِ أورادَها بعد فإن أنهتها ستُلَبِّيهما.

ترى هل هذا هو الذكر الذي طلبه القرآن والسنة من المسلم؟!

لكريم سبحة لا تغادر يدَه يحصي بها أوراده اليومية، ولكنَّ ذمة كريم المالية غيرُ نقية، وعلاقاتُه الأسرية غير مرضية، وكلماتُه وأخباره غير سوية.

ترى هل هذا هو الذكر الذي طلبه القرآن والسنة من المسلم؟!

أيها الإخوة:

ذكر الله تعالى هو روح الإسلام ولبّه، وإنسان عينه وقلبه، يحيي الله به قلوب الذاكرين، وتُحَلِّق به عزائم السالكين، وتعلو به همم العاملين، يزيل الله به الوَقْر عن الأسماع والبَكَمَ عن الألسن والظلمة عن الأبصار.

ذكر الله تعالى هو باب الله الأعظم المفتوح بينه وبين عبده ما لم يغلقه العبد بغفلته، جعل الله تعالى لكل عبادة مقداراً ووقتاً إلا ذكرَ الله فقال عنه ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: 41] ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ

كَثِيرًا﴾ [آل عمران: 41] ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأنفال: 45] ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: 35].

ذكر الله تعالى هو روح الأعمال الصالحة، فإذا خلا العمل عن الذكر كان كالجسد الذي لا روح فيه، فقد شرعت الصلاة لذكر الله ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: 14] وشرعت الجمعة لذكر الله ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: 9] وشرع الحج لذكر الله، قالت عائشة رضي الله عنها: "إنما جعل الله عز وجل الطواف بالبيت وبين الصفا والمروة ورمي الجمار، لذكر الله عز وجل" (أخبار مكة للفاكهاني).

أيها الإخوة:

الذكر يقابل النسيان، فهو وصف للقلب لا اللسان، وأصل الذكر تنبه القلب للمذكور، وحقيقة ذكر الله أن يتنبّه العبد إلى أنه في سمع الله ونظره، في جميع حركاته وسكناته، ويرى نفسه في حضرته، فلا ينوي ولا يقول ولا يفعل إلا ما يرضيه عنه ويرضاه له، إذا أمره ائتمر وإذا نهاه انتهى.

فالذكر وصف حال القلب، وإنما جُعِل ترديد اللسان لألفاظ الذكر ذكراً؛ لأنه يعين القلبَ على التذكر والروحَ على التأثر.

حقيقة ذكر الله، أن يعرف المرء ربه وقت النفقة فيُكْرِم، وحين البأس فيُقْدِم، وحين الطمع فيُحْجِم.

حقيقة ذكر الله أن يتقن العامل عمله لأنه يذكر أن الله يراه، ويجتهدَ الطالب في دراسته ليعلي بها أمر الله، وترعى الزوجة مال زوجها وولده التزاماً بأمر الله.

حقيقة ذكر الله أن يبرَ الابن والديه تقرباً من حضرة الله، ويخدمَ الموظف مراجعيه إكراماً لعباد الله، ويحنوَ التاجر على أبناء جلدته ليرحمه الله، ويلبي المسلم نداء الصلاة امتثالاً لأمر الله.

يفعل أولئك ذلك كلَّه لأنهم يرون أنفسهم في قبضة الله وسطوته، يتطلعون إلى نعيمه وجنته، ويخافون من عذابه وعقوبته.

حقيقة ذكر الله أن تذكر ربك آناء الله وأطراف النهار، وأن تعلم أن عافيتك ونشاطك وسعادتك بذكره وحضورك معه، وأن سُقْمَك وخمولك وشقاءك بغفلتك وبعدك عنه.

إذا مَرضْنَا تَداوَينا بذكرِكم ونتركُ الذكرَّ أحياناً فننتكسُ

قال التابعي الحافظ المفسر سعيد بن جبير رحمه الله: (الذكر طاعة الله، فمن لم يطعه لم يذكره وإن أكثر التسبيح والتهليل وقراءة القرآن).

قال الإمام النووي رحمه الله: (واعلم أن فضيلة الذكر غير منحصرة في التسبيح والتهليل والتكبير ونحوها بل كل عامل لله بطاعة فهو ذاكر لله)، وقال عطاء الخراساني المحدث الواعظ رحمه الله: مجالس الذكر هي مجالس الحلال والحرام كيف يشتري ويبيع ويصلي ويصوم ويحج ويتزوج ويطلق وأشباه هذا).

وقال الحسن البصري: (الذكر ذكران: ذكر الله عز وجل بين نفسك وبين الله عز وجل ما أحسنَه وأعظمَ أجرَه، وأفضلُ من ذلك ذكر الله سبحانه عند ما حرم الله عز وجل).

أخرج الخرائطي في اعتلال القلوب عن أعرابي قال:

"خرجت في بعض ليالي الظلام، فإذا أنا بفتاةٍ كأنها عَلَم، فأردتها عن نفسها، فقالت: ويلك أما كان لك زاجر من عقل، إذ لم يكن لك ناه من دين؟ فقلت: إنه والله ما يرانا إلا الكواكب، قالت: فأين مكوكبها؟".

ففي قولة الفتاة ذكر حقيقي لله تعالى؛ لأن حقيقة ذكر الله أن يتنبه العبد إلى أنه في سمع الله ونظره، في جميع حركاته وسكناته، ويرى نفسه في حضرته، فلا ينوي ولا يقول ولا يفعل إلا ما يرضيه عنه ويرضاه له. إذا أمره ائتمر وإذا نهاه انتهى.

وذكر الخرائطي قصة رجل أراد امرأة عن نفسها فقالت له: أنت قد سمعت الحديث وقرأت القرآن وأنت أعلم، فقال لها: فأغلقي أبواب القصر، فأغلقتها، فدنا منها، فقالت: بقي باب لم أغلقه قال: أي باب؟ قالت: الباب الذي بينك وبين الله تبارك وتعالى. قال: فخاف الرجل وانصرف.

فقالةُ الفتاة ذكرٌ لله تعالى؛ لأن حقيقة الذكر أن يتنبه العبد إلى أنه في سمع الله ونظره، في جميع حركاته وسكناته، ويرى نفسه في حضرته، فلا ينوي ولا يقول ولا يفعل إلا ما يرضيه عنه ويرضاه له، إذا أمره ائتمر وإذا نهاه انتهى.

ومثل هاتين القصتين ما جاء في حديث السبعة الذين يظلهم الله تعالى بظله يوم لا ظل إلا ظله: «وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ» [البخاري]، وكل هؤلاء يتشبهون لسيدنا يوسف حين دعته امرأة العزيز ﴿وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾ [يوسف: 23].

أيها الإخوة:

تلاوة القرآن الكريم ذكر، وذكر أسماء الله تعالى وصفاته ذكر، وذكر أوامره ونواهيه وأحكامه ذكر، وذكر آلائه ونعمائه ذكر، وما ورد في أدعية وأذكار الصباح والمساء ذكر.

وفائدة هذه الأذكار أن يهتز لها ضمير المسلم وينشرح بها صدره ويرتبط بها قلبه بربه، لتدفعه إلى ساح الحياة مراقباً ربه ذاكراً أنه في سمعه ونظره، يعمر الأرض بهمته، وينشئ حضارة لأمته، حضارةً تجمع بين المادة والروح، والقلب والجسد، والدنيا والآخرة.

وإنه من الغلط البالغ أن يقف المسلم عند ترداد الأوراد بلسانه من دون أن يتنبه لها قلبه أومن دون أن تدفعه للقيام بالأعمال التي نيطت بحياته ووزعت على أوقاته.

قال الحافظ ابن حجر في "فتح الباري": (يطلق ذكر الله ويراد به المواظبة على العمل بما أوجبه الله، أو نَدَبَ إليه...).

وبناء على كل ما سبق:

ليس صواباً فعل أحمد عندما يجلس للذكر ساعة في الأسبوع ثم يغفُل عن ربه طيلة الأسبوع، بل صوابه أن يحثه مجلس الذكر على مراقبة الله في جميع حركاته وسكناته طيلة أيامه ولياليه.

وتخطئ مروة عندما تمنعها أورادها عما أوجبه الله عليها من رعاية زوجها وولدها، ولو ذكرت الله حقاً لذكرت أنه وصّاها بأولادها ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ [النساء: 11]، ووصاها رسوله بزوجها **«إِذَا صَلَّتِ الْمَرْأَةُ خَمْسَهَا، وَصَامَتْ شَهْرَهَا، وَحَفِظَتْ فَرْجَهَا، وَأَطَاعَتْ زَوْجَهَا دَخَلَتِ الْجَنَّةَ»** [رواه البزار].

ولم يذكر اللهَ كريمٌ عندما طقطق بسبحته ولم يطأطئ للحق في معاملته، وعندما حافظ على حمل سبحته ولم يحافظ على حقوق أسرته، وعندما حفظ أذكاره ولم يحفظ لغيره أمواله.

أيها الإخوة:

من الأخطاء التي وقعت في تصور بعض الناس قصرهم الذكر على عدد من الأوراد معين في وقت محدد، وإنهاؤهم ذكر ربهم عند انتهائهم من عدد أورادهم.

فنتج عن هذا التصور أن وجدت قارئاً للورد في الصباح معتدياً على حقوق الخلق عند الظهيرة، ووجدت محافظاً على أوراده المسائية، ومفرطاً في واجباته الحياتية.

وعلى الطرف الآخر انقلب قوم على الأوراد والأذكار، فهجروها وانشغلوا عنها بالأموال والأولاد ناسين قول الله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون: 9].

والصواب أن حقيقة الذكر أن يتنبه العبد إلى أنه في سمع الله ونظره، في جميع حركاته وسكناته، ويرى نفسه في حضرته، فلا يظهر ولا يضمر إلا ما يرضيه عنه ويرضاه له، إذا أمره ائتمر وإذا نهاه انتهى.

وما الأوراد إلا منبهةً للقلب ليفيق من نومته ويتيقظ من غفلته. والله أعلم.

أيها الإخوة:

خلاصة الخطبة في هذه الكلمات:

1- ذكر الله تعالى هو روح الإسلام ولبه، وإنسان عينه وقلبه.

2- أصل الذكر تنبه القلب للمذكور، وإنما جُعِل ترديد اللسان لألفاظ الذكر ذكراً لأنه يعين القلبَ على التذكر والروحَ على التأثر.

3- حقيقة ذكر الله أن يتنبه العبد إلى أنه في سمع الله ونظره، في جميع حركاته وسكناته، ويرى نفسه في حضرته، فلا ينوي ولا يقول ولا يفعل إلا ما يرضيه عنه ويرضاه له، إذا أمره ائتمر وإذا نهاه انتهى.

4- كل عامل لله بطاعة فهو ذاكر لله، ومن لم يطع الله لم يذكره وإن أكثر التسبيح والتهليل وقراءة القرآن.

5- فائدة أذكار اللسان من قرآن وأوراد أن يهتز لها ضمير المسلم وينشرح بها صدره ويرتبط بها قلبه بربه، لتدفعه إلى ساح الحياة مراقباً ربه ذاكراً أنه في سمعه وبصره، يعمر الأرض بهمته، وينشئ حضارة لأمته، حضارةً تجمع بين المادة والروح، والقلب والجسد، والدنيا والآخرة.

أيها الإخوة:

التصورات توجه التصرفات، والمفاهيم تؤثر في الحركات والسكنات، ولهذا جاءت سلسلة مفاهيم تحتاج إلى تصحيح، وهذه الخطبة تحدثت عن مفهوم (ذكر الله تعالى)، والمأمول ممن صح تصوره أن يصح تصرفه. والله الموفق.

والحمد لله رب العالمين